

الفصل الثاني

عطاء الإسلام في بناء الحضارة وإرساء قيمها

- مقدمة.
- أهم الخصائص الحضارية التي أرساها الإسلام.
- خاتمة الفصل.

الإسلام وإرساء قيم الحضارة^(٢٥)

١- مقدمة

أرسى الإسلام حضارة عقيدة تقوم على التوحيد الخالص لله، وحضارة قيم عليا أكد عليها الوحي الإلهي. حضارة تجعل إعمال العقل فريضة دينية، وتجعل إطلاق العقل والحس لبحث ما يحكم الكون (الطبيعة التي خلقها الله) من سنن (قوانين)، إطلاق العقل والحس لدراسة المجتمعات والتاريخ والإنسان، للوصول إلى سنن الله التي تحكم الكون والإنسان والمجتمعات والتاريخ، حضارة تتفق مع انقطره انسلمة للإنسان (كل مولود يولد علي الفطرة).

وقد تعددت معاني الحضارة، فهناك المعني اللغوي ويعني الإقامة في الحضر، وهناك تعريف المعجم والوسيط،^(٢٦) الذي يعرف الحضارة بأنها مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني. والحضارة هي محصلة التفاعل بين الإنسان بعقله وقلبه وحسه وفطرته، مع الكون والحياة، ومع ما يواجهه الإنسان من تحديات عقلية وبيئية، واقتصادية وصناعية وأمنية... ما ينجم عن هذه التفاعلات من علوم وفلسفات وفنون وآداب وأفكار ونظم وتنظيمات ومؤسسات... الخ. ما ينجم عن هذا التفاعل من منتجات مادية ومعنوية، والحضارة عند ابن خلدون هي غاية العمران^(٢٧). صحيح أنه ركز علي الجانب السلبي من الحضارة وهو الوقوع في الترف، وأن الترف مؤذن بفساد العمران، وبهذا يكون قد خلط بين جوهر الحضارة الذي أدركه ابن خلدون نفسه في بعض صفحات

(٢٥) عباس محمود العقاد: التفكير فريضة إسلامية . سلسلة اقرأ ١٩٦٥

(٢٦) راجع المعجم الوسيط

(٢٧) راجع مقدمة ابن خلدون،، وراجع نبيل السملوطي: الدين والبناء الاجتماعي دار الشروق جده سنة ١٩٨٤ الفصل الثاني.

مقدمته، وهو الرقي العقدي والقيمي والعلمي والفني والأدبي، الرقي المادي والأخلاقي...، وبين عرضاً من عرضها وهو الترف، والناقدون لابن خلدون يؤكدون أنه حتى بالنسبة للترف والرفاهية، فإنه لا توجد علاقة حتمية بينهما وبين زوال الحضارة ونهاية العمران. ولعل ابن خلدون قصد نوعاً محددًا من الترف والرفاهية، وهو الترف المفضي إلى إهدار الإيمان وإهدار القيم والأخلاق، والترف المفضي إلى البطالة والترهل والفسق والفجور. ولعله قد دار بخلده قوله تعالى (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) (الإسراء ١٦)، وقوله تعالى (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا فَمِنْ تَلْكَ نَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) (القصص ٥٨). هذا التصور القرآني هو سنة تاريخية واجتماعية. لكن الرفاهية ونعم الله علي عباده عندما تقترن بعقيدة صحيحة، وعندما يقترن بيقين أن الله هو المنعم وهو المعطي، وهو المتفضل، عندما تقترن بمنظومة القيم والأخلاقيات الإسلامية، وبتفاعلية البشرية، فإن هذه الرفاهية يمكن أن تؤدي إلى المزيد من التقدم والنهضة العلمية، أو البحث وبناء القوة المادية والمعنوية التي أمرنا بها الخالق.

وقد كان ابن خلدون علي علم بالجوانب الإيجابية للحضارة، فهي غاية العمران ويرتبط العمران بفكرة (الكلف بالصناع). وهذا يعني قيام الحضارة في المدينة (سكني المدن) ^(٢٨) أبرز الخصائص الحضارية التي أرساها الإسلام وإذا حاولنا أن نوجز أهم الخصائص التي تميزت بها الحضارة التي أرساها الإسلام وأهداها الإنسانية، نجد أنها تتمثل فيما يلي:

أولاً: أما أول حضارة في التاريخ الإنساني ترتبط وتنطلق من وحي السماء متمثلاً في الكتاب والسنة، فهي حضارة لا تعتمد علي العقل وحده، فهو عرضة للضلال والانحراف ولم تعتمد علي الحس وحده، أو حتي علي القلب وحده، ولا عليهم جميعاً مجتمعين، حضارة لا تعتمد علي التفاعل التلقائي غير المنضبط بين الإنسان والبيئة، ولكنها حضارة منضبطة بقيم السماء وأحكام القرآن والسنة، والتوجيهات الربانية. فهناك ثوابت تحكم حركة الإنسان وفكره ونشاطه. لكن هذه الثوابت لا تمنع الاجتهاد فيما لا يوجد فيه نص، أو في مجال المصالح المرسله بثلاثة شروط وهي: أن تكون

(٢٨) راجع مقدمة ابن خلدون،، وراجع دراسات كل من علي عبد الواحد واقي،،، وحسن الساعاتي عن ابن خلدون . وراجع نبيل السمالوطي: البناء النظري لعلم الاجتماع: الطبعة الخامسة ٢٠٠٧ الفصل الرابع

المصالح عامة وليست خاصة، وأن تكون مصالح حقيقية وليست وهمية، وألا تتصادم مع مبدأ أو معيار ثبت بالكتاب والسنة. فالقرآن والسنة يهديان للتي هي أقوم في جميع جوانب الحياة الإنسانية.

قال تعالي (إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (الإسراء: ٩)

ويقول تعالي (وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ) (الإسراء: ٨٢)

ويقول تعالي (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُّوا لَكُمْ وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَأَتَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) (الأنفال: ٦٠)

فالتمسك بضوابط الوحي في مجال العقيدة والعبادات والأسرة والاقتصاد والسياسة وكل جوانب التشريع، يجنب الإنسان والمجتمعات الترددي في مهالك الاعتماد علي العقل وحده، أو علي الخبرات الإنسانية وحدها. فقد أهلكت الناس والمجتمعات في أزمت الربا، والجنسية المثلية، والتفكك الأسري، بل والعزوف عن الزواج، والانهيارات المالية والصراعات الاقتصادية والسياسية، وسيادة العنصرية والعصبيات وسيطرة الشهوات والنزوات وسيطرة الشيطان والانهيارات الأخلاقية الكبرى، فلا حضارة بدون هدي من السماء، ولا تقدم بدون التزام بضوابط الوحي. وهذا ما أكدته وطبقته حضارة الإسلام كما سنري بالدليل في الفصول القادمة.

ثانياً: أمّا أول حضارة إنسانية ركزت علي عمارة النفس بالإيمان والتقوي، وعمارة الكون باكتشاف السنن الإلهية التي تحكمه، وتوظيفها في كل مجالات التنمية الزراعية والصناعية والعلمية والتكنولوجية وعمارة المجتمعات بتطبيق أحكام الله وهديه. فالحضارة تعتمد في الفكر الإنساني علي مجموعة ركائز، الأول: هو هدي السماء، والثاني: العمارة في كل ميادين الحياة، مادية ومعنوية. إذن هي حضارة عمارة للروح والقلب والنفس والعقل والكون والمجتمع والإنسانية كلها.

ثالثاً: الحضارة الإسلامية أسست المجتمع علي التعددية - تعدد الألوان والألسنة والأعراق والديانات... هذه التعددية هي سنة من سنن الله في الكون (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) (هود: ١١٨-١١٩) وبعض المفسرين يقولون: إن الله خلق الناس للاختلاف، والبعض يقولون للرحمة^(٢٩). فلم يؤسس الإسلام المجتمع

(٢٩) سيد قطب (الظلال) دار الشروق ١٩٩٢ - المجلد الرابع ص ص ١٩٢٦ وما بعدها وراجع تفسري الطبري

علي أساس عرقي أو (اثني) وإنما علي دعائم إيجابية إنسانية، يؤمن بحق الناس في الاختلاف، وفي حرية اختيار العقيدة والعبادة وأساليب الحياة. وقد تجلّي هذا بشكل واضح في أن أول دولة أسسها الإسلام في المدينة المنورة، أسسها الرسول عليه الصلاة والسلام علي التعددية (مسلمين ويهود وآخرين)، المنضبطة بوثيقة دستورية هي أول دستور في التاريخ الإنساني، وهي تنقسم إلى ثلاثة وثائق: الأولى: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، والثانية: ميثاق التحالف الإسلامي بين المهاجرين والأنصار ومن يلحق بهم من يهود وغير مسلمين، والثالثة: اتفاقية الرسول مع اليهود^(٢٠). فالحضارة الإسلامية تعادي كل أشكال العصبية والعنصرية والفئوية والطبقية، واجتمع المسلم يتسع ويرحب بكل الناس والجماعات علي اختلاف ألوانهم وأطيافهم، بشرط الالتزام بالأسس التعاقدية والدستورية للمجتمع المسلم أو للأمة الإسلامية والمبدأ الأساس في حقوق غير المسلمين وحرّيّاتهم (لهم ما لنا وعليهم ما علينا) وهذا ما ستوضحه تفصيلا في فصل قادم.

رابعاً: تنطلق حضارة الإسلام من قوله تعالي (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) آل عمران (١٩) فهي حضارة إيمانية تؤمن بكل أنبياء الله ورسله وكتبه من آدم عليه السلام وحتى محمد عليهم جميعا وعلي نبينا أفضل الصلاة والسلام. هذا الإيمان شرط أساس لإيمان المسلم، يقول تعالي: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفِرُّ بَيْنَ أَيْدِي رَسُولِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (البقرة ٢٨٥)

خامساً: الحضارة الإسلامية حضارة أخلاقية. فالعديد من الحضارات السابقة علي الرسول واللاحقة عليه والمعاصرة، تفصل بين التقدم وبين الأخلاق، فالحضارة الرومانية كانت قائمة علي القوة، والحضارة الإغريقية كانت قائمة علي السادة والعبيد، والحضارة المصرية القديمة كانت قائمة علي تأليه الحاكم، والحضارة الغربية المعاصرة تقوم علي سلطة رأس المال والرأسماليين وعلي تسلط الغرب علي شعوب العالم، وعلي حرية وكرامة الإنسان الغربي فقط. أما إنسان العالم الثالث فلا يستطيع أن يعيش وليس له أية حقوق، وما نراه في العراق وأفغانستان وغزة، وما رأيناه في البوسنة والهرسك وكوسوفوا، يبرز أن التفرقة والتمييز بين الناس إنما يتم علي أسس دينية وعرقية وطبقية، فلا مساواة بين كل البشر. أما الحضارة الإسلامية فإنها تساوي بين كل البشر، وترفض كل أشكال

(٣٠) صفى الدين المباركفوري: الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية: دار التدمرية - السعودية ٢٠٠٠ ص

التميز الإيجابية والسلبية بين الناس علي أساس الدين أو اللون أو العرق أو الذكورة والأنوثة.. وهذا ما سوف نوضحه تفصيلاً في الفصول القادمة.

يكفي هنا الإشارة إلى أن القرآن الكريم خص رسالة الإسلام ومهمة محمد عليه الصلاة والسلام في قوله تعالي (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ) الأنبياء (١٠٧) وسوف نوضح فيما يلي أخلاقيات ورحمة الإسلام لكل الناس في السلم وحتى في الحرب.

سادساً: حضارة الإسلام تقوم علي الوسطية والاعتدال في كل شيء في العبادات والمعاملات والسلوكيات والتفاعلات والعلاقات اليومية، والإسلام يرفض كل أشكال التطرف والمغالاة حتي في الدين والعبادة.

قال تعالي (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (البقرة ١٤٣) وقال تعالي (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) (النساء ١٧١). وتظهر الوسطية في رد الرسول علي الثلاثة رهط الذين تساءلوا عن كيفية عبادته عليه الصلاة والسلام، فلما أخبروا بما كانوا يقولونها. فقال أحدهم: أما أنا فأقوم الليل ولا أنام، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثالث: وأنا لا أتزوج النساء، فقال لهم الرسول، أنه عليه الصلاة والسلام يقوم ويرقد، ويصوم ويفطر، ويتزوج النساء، ثم وضع قاعدة الوسطية (فمن رغب عن سنتي فليس مني) (٣١). والوسطية تنطبق في الإسلام في العبادات - الصلاة والصيام والزكاة والحج، وتنطبق في مجال الاستمتاع بالطيبات، وفي مجال الأكل والشرب، وفي مجالات العلاقات مع الناس، وفي مجال أداء المهام والواجبات والأعمال... والآيات القرآنية والأحاديث كثيرة في هذا. فحضارة الإسلام تؤكد علي الوسطية بين الغلو في المادية (اليهود) والغلو في الرهبانية (النصاري)، وبين كل أشكال الإفراط والتفريط فالإسلام يؤمن بالوسط العادل^(٣٢)

سابعاً: الحضارة الإسلامية تعلي من قيمة العقل والتفكير في الإسلام فريضة إسلامية، وطلب العلم في الإسلام فريضة، فطلب العلم بنص حديث رسول الله فريضة علي كل مسلم ومسلمة، وآيات القرآن تحت وتدفع المؤمنين دفعا إلى أعمال عقولهم في الكون، وفي الإنسان، وفي البيتة، وفي المجتمعات وفي التاريخ، لأنها كلها خلق الله، وكلها خاضعة لسنن الله ولا توجد فيها عبثية، وأنه يجب

(٣١) راجع في هذا دراسة علوي عبد الله طاهر،، بعنوان وسطية الإسلام: الهيئة العامة للكتاب - اليمن

٢٠٠٨ ص ص ٨٥ - ٨٨

(٣٢) المصدر السابق

علي الإنسان البحث العلمي للوصول إلى هذه السنن، وهذه السنن يمكن الانتفاع بها في التسمية وعمارة الأرض، واستخراج كنوزها وفي مجالات الصناعة والزراعة، وتوظيف هذه السنن في الانتفاع بالمسخرات الكونية هذا إلى جانب أن الوصول إلى هذه السنن يزيد من الطاقة الإيمانية عند الناس: والإسلام دعا أيضا إلى استخدام الحواس والتجربة كمصدر للمعرفة^(٣٣) يقول تعالي (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (النحل ٧٨). لكن الإسلام ضبط هذين المصدرين للمعرفة بضابط الرُوحِي حتى يستخدما فيما يصلح للإنسان، وما يعود عليه بالنفع، ويجب تجنب الخوض في الغيبات التي تكفل الشرع ببيانها. وسوف نعالج نظرية المعرفة في الإسلام بشئ من التفصيل في الفصول القادمة.

ثامنا: حضارة الإسلام تقوم علي إطلاق الإبداع العلمي في فهم الكون والإنسان والبيئة والمجتمع والتاريخ، وتعد البحث العلمي انطلاقا من توجهات القرآن والسنة، واستهدافا لنفع الناس والبشرية عبادة لله. وهذا ما سوف نعالجه بمزيد من التفصيل في فصول قادمة.

تاسعا: حضارة الإسلام تحض الإنسان والجماعة المسلمة على بناء أقصى قدر ممكن من القوة في كل مجالات الحياة العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والسياسية والعسكرية. وهذا ما يفهم من قوله تعالي (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ وَعَدُّوا لَكُمْ وَأَخْرَجِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) (الأنفال ٦٠) وهذا التجهيل للقوة يعني التعميم. والقوة المقصودة في الإسلام تقع في ثلاثة مجالات: الأولى: القوة الإيمانية والقيمية والأخلاقية، والثاني: القوة الاجتماعية والسياسية من خلال الاهتمام بمؤسسة الأسرة والمسجد، ومؤسسات التنشئة الاجتماعية، ومؤسسة الشوري، وسيادة الحريات وحقوق الإنسان^(٣٤)، والثالث: القوة المادية والعلمية والاقتصادية والتكنولوجية والعسكرية، لعمارة الكون وردع الأعداء، وتحقيق أقصى قدر ممكن من الاستمتاع المشروع بطيبات الله التي سخرها لعباده.

(٣٣) راجع الكردي: نظرية الإسلام بين القرآن والفلسفة: مكتبة المؤيد السعودية ١٩٩٢ الباب الثاني
(٣٤) راجع جعفر عبد السلام: الإسلام وحقوق الإنسان: مكتبة الأديب كامل الكيلاني ٢٠٠٨: القسم الأول
ص ص ٧ - ١٩

عاشراً: حضارة الإسلام تركز على العدل المطلق دون تمييز. فالمسلم مطالب بالعدل مع أقاربه ومع الأعراب، مع من يحب ويكره، مع المسلم وغير المسلم، مع الأغنياء وأصحاب السلطة والناصب، ومع عامة الناس، والأوامر القرآنية كثيرة جداً في هذا الشأن بالذات. ومن هذه الآيات قوله تعالى (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُم لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل ٩٠) ويقول تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة ٨). وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَآلَهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ نَعِرْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (النساء ١٣٥). فالإسلام يحارب معاملة الناس على أساس الهوى أو العنصرية أو العواطف أو القرابة أو أي معيار آخر غير المعيار الأساس الذي وضعه وأقره وأمر به الإسلام وهو العدل.

حادي عشر: من أسس الحضارة الإسلامية إطلاق الحريات لكل الناس وفي كل الميادين بشرط البعد عن التطرف والعلو أو الإفساد والفساد، والانحراف أو إيذاء الغير، أو الاعتداء على معيار إسلامي^(٣٥)

وفي مقدمة الحريات حرية العقيدة والتدين (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة ٢٥٦)^(٣٦) وحرية القول وحرية التنقل، وحرية الرأي والعمل، وحرية الاختلاف مع الالتزام بآدابه. ويلاحظ أن آية (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) جاءت مباشرة بعد آية الكرسي التي ثبتت لله أكثر من خمسة عشر صفة، وكان المنطق في عرف البشر أن يأتي بعدها أمر بعبادة الله، لكن المنطق الإلهي الأعلى والأعلم اقتضى أن يأتي بعدها مبدأ عدم الإكراه في الدين، والسبب في هذا أنه قد تبين مع

(٣٥) راجع عبد الحميد أبو سليمان: أزمة العقل المسلم: المعهد العالمي للفكر الإسلامي الدار العالمية للكتاب الإسلامي - السعودية ١٩٩٢ ص ١٤٠ - ١٤٨

(٣٦) تقول زجريد هونكه في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) إن شعار العرب السني رفعوه بعد انتصارهم كلها هو (لا إكراه في الدين) فلم يجول في خاطر العرب إطلاقاً أن يكرهوا أهل البلاد المفتوحة أو الحررة على الدخول في الإسلام، بل حفظوا لهم دور عبادتهم وأديرتهم وأساقفتهم وجميع حقوقهم. راجع مقتطفات من كتاب هونكه منشور في العدد ١٦٧ من قضايا إسلامية الصادر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠٩ ص ٢٧ وما بعدها

وَيُخْرِجُهُمْ وَيَنْصُرُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) (التوبة ١٤) ويقول للمسلمين عن غزوة أحد وما حدث فيها (أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَلَيْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران ١٦٥) والإسلام يرجع التخلف وما يصادفه الناس والمجتمعات من مصائب وأزمات في المعيشة إلى نوع الفكر والسلوك السائد، لهذا يؤكد علي أن الحل لا يكون إلا بأن يغير الناس أنماط الفكر والسلوك التي أنتجت التخلف والأزمات وهذا يعني تفعيل الطاقات المتعددة التي خلقها الله داخل الإنسان (٣٩)

خامس عشر: تركز الحضارة الإسلامية تركيزاً خاصاً ونوعياً علي الأهمية المحورية لمؤسسة الأسرة في حياة الإنسان، فهي المؤسسة المسؤولة وحدها عن إنجاب وتربية الأبناء، وعن تحقيق مطالب الإنسان وإشباع حاجاته البيولوجية والقطرية دون سواها. وهي المؤسسة التي تحقق الأمن الاجتماعي والنفسي للإنسان، فهي المؤسسة التي تحقق للإنسان السكن والمودة والرحمة. وهي المؤسسة التربوية التي تضمن تنشئة أبناء صالحين للمجتمع يتقون ربهم، ويلبون مطالبهم الاقتصادية والاجتماعية والمهنية، وهي المؤسسة التي تضمن أمن المجتمع وأمن الناس، فالمجتمعات عندما تفككت أسرها، وعزف الناس فيها عن الزواج، انتشرت فيها العديد من المآسي من عنف، واغتصاب، وانعدام أمن، ومخدرات، وشذوذ، وانحراف... الخ^(٤٠) ومن خلال الاهتمام بمؤسسة الأسرة أبرزت الشريعة الإسلامية - ومن ثم الحضارة الإسلامية - حقوق الطفل، وفي مقدمتها حقه في أبوين شرعيين، وحقه في حسن اختيار الأم، وحسن اختيار الإسم، وحقه في النسب والرضاع والحضانة، وحقه في بيئة أسرية طبيعية حانية، وحقه في غرس العقيدة الصحيحة والقيم والأخلاق في نفسه من خلال القدوة الصالحة، وحقه في التعليم والرعاية الصحيحة، والاجتماعية، والخلقية.... الخ^(٤١)

سادس عشر: انطلقت الحضارة الإسلامية من أن الأمن النفسي والاجتماعي، المادي والمعنوي، الفردي والجماعي، الأمن الشامل مصدره وأساسه الإيمان، فلا أمن بلا إيمان، ولا صحة

(٣٩) الملتقى الفكري للإبداع: خطاب التجديد الإسلامي: دار الفكر - كلمة الناشر ٢٠٠٤ ص ٨ وراجع نبيل السمالوطي: الدين والبناء الاجتماعي: الجزء الثاني - مكتبة الشروق جده ١٩٨٣ - الفصل الثالث .

(٤٠) راجع بحث رشا الدسوقي: الأسرة المسلمة بين الاتفاقات الدولية والمقاصد العليا للشريعة المقدم في المؤتمر الدولي بشأن أحكام الأسرة بين الشريعة الإسلامية والاتفاقات والإعلانات الدولية - جامعة الأزهر ورابطة الجامعات الإسلامية ٧ - ٩ أكتوبر ٢٠٠٨

(٤١) هلالى عبد الله أحمد، وخالد القاضي: حقوق الطفل في الشريعة الإسلامية والمواثيق الدولية والتشريعات الوطنية - مكتبة الأسرة ٢٠٠٨

نفسية للإنسان وللمجتمعات بدون إيمان. (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد ٢٨) وقال تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) (الأنعام ٨٢). وعين الله على أهل مكة أنه من بعد رب البيت يؤمنه من الجوع والخوف (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ) (قريش ٣) (٤). فتطبيق منهج الله وأحكام شرعه في كل مجالات الحياة، ذلك التطبيق النابع من الإيمان بالله وتمثل وإعمال منظومة القيم الإسلامية في العدل والشورى والتكامل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتمسك بمكارم الأخلاق.. هذا هو السبيل إلى الأمن المادي والاجتماعي والنفسي والاقتصادي، وهو أيضا السبيل إلى الأمن الدولي. وهذا ما سوف نزيده وضوحا في الفصول القادمة

سابع عشر: حضارة الإسلام تملك ذاتيا آليات البقاء والاستمرار رغم تبدل العصور والأزمان، ورغم ظهور مستجدات حضارية جديدة باستمرار، وهذا لأن الإسلام يمتلك إلية التجديد، وقد أرشدنا رسولنا عليه الصلاة والسلام أن الله يبعث علي رأس كل مائة عام هذه الأمة من يجدد لها أمر دينها.

فالإسلام يتضمن مجموعة من الثوابت الخمسة وهي العقيدة الصحيحة (عقيدة التوحيد)، والمقاصد الشرعية، والأحكام قطعية الدلالة والثبوت، والعبادات، والقيم والأخلاق. وفيما عدا هذا فهناك المتغيرات التي يجب الاجتهاد بشأنها حتى تواكب متغيرات ومستجدات كل عصر. لكن هذا الاجتهاد يجب أن ينضبط بالثوابت الخمسة المذكورة. وهناك مئات الحالات التي تفرضها المتغيرات في كل عصر^(٤٢). والقرآن الكريم يؤكد أن هذه الدعوة إلى التغيير في الفكر والسلوك والنفوس وفي النظم والمؤسسات... واجبة لبقاء الدين واستمرار قوة ونهضة المجتمع المسلم. فالقرآن الكريم يربط الواقع المعاش بالفكر الذي أنتجه، ويجعل مفتاح الحل في الذات قبل الآخر (٤٣) يقول تعالى عن أحد وما حدث فيها (أَوَلَمْ آتَاكُمْ مِّنْصِيبَةٍ لَّدُنَّا قُلْتُمْ مَثَلَيْهَا قُلْتُمْ أَلَيْ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران ١٦٥) ويقول تعالى (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ

(٤٢) المتلقي الفكري للإيداع: مصدر سابق ص ص ٧-٨

(٤٣) المصدر السابق . وراجع أنور أبو طه وآخرون: خطاب التجديد الإسلامي الأزمنة والأسئلة: مكتبة الأسد دمشق ٢٠٠٤: راجع بشكل خاص الحدائثة وأزمة مؤسسات التعليم ،،، وتجديد الفكر الإسلامي مدخلا للإصلاح التعليمي،،، وتجديد الفكر الإسلامي مدخلا للإصلاح التعليمي (أبو طه) وقضايا التحديد: قراءة في التحولات وأسباب التعثر لعبد الرحمن حللي

يُغَيِّرُوا مَا بَأْتَسِهِمْ) (الرعد ١١) فالقرآن الكريم يرجع ما يعيше الناس من تخلف ومصائب إلى حصيلة الفكر السائد. وبناء علي هذا فإن مواجهة هذا التخلف والقضاء علي المشكلات والأزمات والفساد والمصائب، إما يكون من خلال تبني نوع جديد من الفكر والسلوك يختلف عن ذلك الذي أنتج التخلف والفساد والأزمات.

وينتقد الإسلام ظاهرة يمكن أن نسميها، ظاهرة الآبانية، وتعني، التمسك بفكر وسلوك وممارسات الآباء، دون فهم وإخضاع للعقل أو للمنطق والنقد، استناد إلى ثوابت الوحي أو الشرع. يقول تعالي في ذم تقليد الكفار (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة ١٧٠) وجاء بعد هذه الآية مباشرة تمثيل أولئك الكفار بالذي يتفق بما لا يسمع، ويفهم بأهم صم، وبكم، وعمي، وأهم لا يعقلون. قال تعالي (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (البقرة ١٧١) وكذلك ينتقد الإسلام ظاهرة يمكن أن نطلق عليها ظاهرة (طول الأمد) (٤٤) وتشير هذه الظاهرة إلى الجمود والثبات والتحجر علي حال واحد مدة طويلة من الزمن، دون مراجعة أو تعديل أو إعمال للفكر، أو تطوير للتوافق مع المستجدات في كل عصر. يقول تعالي (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) (الحديد ١٦)

ثامن عشر: هناك مجموعة أخرى كثيرة من اخصائص التي تميز حضارة الإسلام، سوف نكفي هنا بذكرها تاركين التفاصيل للفصول القادمة.

١- إن حضارة الإسلام القائمة علي توجهات الكتاب والسنة هي في أساسها وثيقة تحرير الإنسان وهي أول وثيقة في التاريخ تحرر الإنسان وتكرمه وتقرر حقوقه كاملة في الحياة، والأمن، وإبداء الرأي، والاعتقاد، والتنقل، والتجمع والتعليم، والرعاية الصحية، وحقه في حياة، وحقه في عدم الاعتداء أو الترويع، وحقه في مستوي اقتصادي يكفل له حد الكفاية وليس حد الكفاف.... وهذا لكل من يعيش علي أرض الإسلام أو داخل الدولة الإسلامية مسلما كان أم غير مسلم (٤٥).

(٤٤) المصدر السابق ص ٨ . وراجع أيضا: محمد السيد الدسوقي: تجديد فهم الدين. مفهوم التجديد. مجالاته. ضوابطه. أهميته وآثاره - سلسلة فكر المواجهة - رابطة الجامعات الإسلامية - العدد ١٩ سنة ٢٠٠٧
(٤٥) راجع آراء (سجريد هونكة) وأقوالها المعروضة في العدد ١٦٧ من سلسلة قضايا إسلامية - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠٨ ص ٢٧ وما بعدها

٢- حضارة تعلي من قيمة التكافل الاجتماعي، فالفقراء لهم حق ثابت ومعلوم في أموال الأغنياء، حق وليس منحة. وللفقراء حق علي الأغنياء، وعلي الدولة، وعلي ولي الأمر أن يحصلوا علي حد الكفاية وليس حد الكفاف. وهذا ما سيأتي بيانه تفصيلاً (٤٦). والقرآن والسنة تدفع المؤمنين إلى الصدقات الطوعية، ويدفع بالمؤمنين إلى وقف "أموالهم الثابتة أو المنقولة، للصرف منها علي أعمال البر والخير، مثل الوقف علي البحث العلمي وطلاب العلم والمعاهد، وعلي الفقراء والمساكين والأيتام والأرامل، وعلي بناء المساجد وتحفيظ القرآن ودور العلم، وعلي غير هذا من أوجه البر. والتكافل في الإسلام يشمل الفرائض وأركان الإسلام، فهناك ركن لا يصح الإسلام بدونه وهو الزكاة. فالحضارة الإسلامية تؤكد علي الحجة والتآلف والتكافل والأمن والسلام الاجتماعي والأمن النفسي، وعلي إزالة كل أسباب الصراع والحقد الطبقي أو الاجتماعي، وكل أسباب العدوان والفتن والقتال علي مستوي الأسر والجماعات والمجتمعات.

٣- حضارة الإسلام التي تنطلق من الكتاب والسنة أكدت علي مفهوم التعليم المتواصل أو المستمر، أو التعليم من المهدي إلى اللحد. فليس هناك من ينتهي عنده التعليم، لأن العلم هبة من الله يحصلها الإنسان بجهده واستحقاقه. وهذا مفهوم لم تعرفه التربية المعاصرة إلا قريبا

٤- حضارة الإسلام تؤكد علي حقيقة التوافق والتناغم مع البيئة (الأرض والجبال والحيوانات والنباتات والبحار والأنهار... الخ)

فهذه مخلوقات الله، خلقها الله ومهدا وأعدا للإنسان. يقول تعالي (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (البقرة ٢٩). وقال تعالي (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ تُشْجَرُونَ) (المالك ١٥) فالله سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان، وخالق الكون، أعد له للإنسان وذل له ومهده وطلب من الإنسان أن يعمل عقله وجهده، وأن يخطط لعمارة الأرض والاستمتاع بالطيبات، والانتفاع من المستخرات الكونية، من خلال فهم السنن الإلهية التي تحكم الكون، والإنسان، والحيوان، والنبات، وتحكم المجتمعات والتاريخ، فلا بد من تفعيل جهد وتفاعل الإنسان مع البيئة التي خلقها الله للإنسان. فالعلاقة بين الإنسان والبيئة في الإسلام علاقة ودية تفاعلية، وليست علاقة صراع، كما يصورها الفكر الغربي وكما يظهر حتي في مصطلحاته مثل غزو الصحراء، وقهر

الطبيعية، والصراع مع الطبيعة.. الخ فالنموذج الإرشادي الإسلامي **Paradigm** نموذج توافقي، أما النموذج الغربي فهو صراعي.

٥- الحضارة الإسلامية تعلي من قدر الإنجاز والعمل والإنتاج. فالإنسان مطالب بعمارة الأرض والتنمية الشاملة. يقول تعالي (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود ٦١) فالإنسان المسلم إنسان منجز، والمجتمع المسلم هو مجتمع الإنجاز **Achievement** (٤٧). وقد كان لنا في مجتمع المدينة خلال حياة الرسول ﷺ، ومجتمع الخلفاء الراشدين، وخلال حكم بنو أمية، والعصر العباسي... أسوة في الإنتاج والإنجاز الفكري والعلمي والمنهجي والصناعي والزراعي والتجاري، وفي تحرير الإنسان وتكريمه كما أمر ديننا الإسلامي الحنيف... وهذا ما سوف نزيده تفصيلاً في الفصول القادمة.

٦- الحضارة الإسلامية تحدد مجموعة من الشروط للتمكين في الأرض، مع نيل رضوان الله، في مقدمتها الإيمان الصحيح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطبيق أحكام الله، وإعمال العقل والانطلاق في العلم وتحصيله، علي أساس أنه عبادة لله، وبناء القوة الممكنة في مجالات الفكر والاقتصاد والإنتاج والخدمات.

يقول تعالي (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (الحجر ٤١).

خاتمة: هذه أبرز معالم وأهداف وقيم الحضارة التي أرسى الإسلام دعائمها، والتي بدأت مع نزول الوحي بمكة المكرمة، ثم مع إقامة أول دولة الإسلام في المدينة المنورة، والتي نمت وازدهرت خلال الأربعة قرون الأولى للهجرة. هذه خصائص فريدة تتميز بها حضارة الإسلام، لا يشاركها فيها حضارة أخرى سابقة ولا لاحقة، والسبب في تميزها النوعي أنها حضارة منطلقة من وحي الله، مسترشدة بمبادئ السماء، منضبطة بضوابط الشريعة. هذا خير ضامن لها للاستقامة والاستمرار وتحقيق أقصى درجات الخير والبركة والنهضة والتقدم للمسلمين ولغير المسلمين الذين يعيشون داخل المجتمع الإسلامي، وتحقيق أقصى درجات القوة في كل المجالات، مع ضبط هذه القوة بالمعيارية الإسلامية التي توجه القوة بجميع جوانبها لصالح الإنسان، مطلق إنسان، وتحميه من كل أشكال الدمار والفساد والانحراف وتضمن للإنسان السعادة والأمن والبركة في الدنيا والآخرة.

(٤٧) راجع كتاب المؤلف بعنوان: التنمية بين الاجتهادات الدينية والوضعية - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٩٦ - الفصل السابع. وراجع صحي الصالح: الإسلام ومستقبل الحضارة: دار الشوري: بيروت. ط (٢). ١٩٩٠. الفصل (١٢) الحريات وطابعها الحضاري في الإسلام ص ص ١٩٧ - ٢٢١